ذِكر قِصَّة دَاوُد عَلَيهِ السَّلَام[١]

قد ذكرنا أنه اسم أعجمي. وقال الجوهري: لا يهمز[٢]. وقال ابن عباس: هو بالعبرانية القصير العمر.

وقال وهب: هو داود بن إيشا بن عويد بن باعز بن سلمون بن نحشون بن عمي بن نادب بن آرام بن حَصْرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب عليه السلام.

وقال ابن عباس: كان داود قصيراً أزرق.

وقال الثعلبي: حدثنا الحسين بن محمد الدينوري بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الزرقة يُمْنٌ وكان داود النبي أزرق»[٣].

وقال مقاتل: ذكر الله داود عليه السلام في اثني عشر موضعاً.

فصل في سيرته عليه السلام

روى الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾[البقرة: ٢٥١] أن المراد بالحكمة: النبوَّة ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ يعني: علمه صنعة الدروع، والتقديرَ في السَّرْدِ ونحوه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾[سبأ: ١٠] الآية. قال مقاتل: هو النبوَّة ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ أي: سبِّحي ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ قال وهب: كان يمر بالجبال فتسبِّح وتجاوبه وكذا الطير. وقال قتادة: يسبِّحن، أي: يصلّين معه إذا صلى ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾[سبأ: ١٠] قال ابن عباس: كان الحديد في يده كالشمع ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾[سبأ: ١١] أي: دروعاً طوالاً كوامل ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾[سبأ: ١١] أن اعمل

---

(١) في (ب): الباب الرابع والعشرون في قصة داود عليه السلام، وانظر لهذه القصة «تاريخ اليعقوبي» ١/ ٥١، و«تاريخ الطبري» ١/ ٤٧٦، و«البدء والتاريخ» ٣/ ١٠٠، و«عرائس المجالس» ص ٢٧٧، و«التبصرة» ١/ ٢٧٤، و«الكامل» ١/ ٢٢٣، و«البداية والنهاية» ٢/ ٩.

(٢) «الصحاح»: (دود).

(٣) أخرجه الثعلبي في «عرائس المجالس» ص ٢٧٧ـ٢٧٨، وابن الجوزي في الموضوعات (٣٣٥) وقال عقبه: هذا حديث لا يصح.

الحِلَق على قدر المسامير، لا تكون واسعة فتعلق المسامير ولا ضيقة فتكسرها المسامير الغلاظ.

وقال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾[الأنبياء: ٨٠] قال وهب: اللبوس عند العرب السلاح كله، درعاً كان أو جوشناً أو سيفاً أو رمحاً.

وقال قتادة: أول من صنع الدروع داود، وكانت صفائح، فهو أول من سردها، وعلَّمه الله منطق الطير.

وقال وهب: كان سبب عمله الدروع أنه كان يخرج متنكراً، فإذا وجد جماعة لا يعرفونه دنا منهم، وسألهم عن سيرة داود، فيثنون عليه ويدعون له، فبينما هو في بعض الأيام على عادته يسأل عن نفسه بعث الله إليه ملكاً في صورة آدمي فقال: نِعْمَ الرجل هو داود لولا أنه يأخذُ من بيت المال، فضاق صدرُ داود، وسأل الله أن يغنيه، فألان له الحديد، فكان في يده مثل الخيوط، وكان يبيع الدرع بأربعة آلاف درهم يأكل منها ويتصدق ويطعم عياله[١].

وأعطاه من طيب النغمة ما لم يُعْطَ غيره، فكان إذا قرأ الزبور دنت منه الوحوش حتى تُؤخذ بأعناقها وإنها لمُصيخَة. قال ابن عباس: وما صُنعت الصُّنوج والمزامير إلا على صوته وكذا كل لحن مطرب. وكان إذا قرأ أظلَّتْهُ الطيور ووقفَ الماءُ الجاري وسكنت الرياح[٢].

وقال مجاهد: كان الله قد أعطاه سلسلة موصولة بالمجرة ورأسها عند صومعته، ولونها لون النار، وهي مرصعة بالجواهر وقضبان اللؤلؤ، فلا يحدث في الهواء حدث إلا صلصلت السلسلة فيعلم داود ما حدث ولا يمسُّها ذو عاهة إلا برىء[٣]، وسنذكرها.

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨١.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٧٨.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٧٩.

ذكر ما أنزل عليه

روى أبو صالح عن ابن عباس قال: أنزل الله الزبور على داود مئة وخمسين سورة بالعبرانية، في خمسين منها ما يلقونه من بُخْتَ نصَّر، وفي خمسين ما يلقونه من الروم، وفي خمسين مواعظ وحكم. ولم يكن فيه حلال ولا حرام ولا حدود ولا أحكام.

وقال وهب: ومن الزبور: يا عبدي الشكور، إني وهبتك الزبور، وأتقنت لك فيه الأمور، وهو من الوحي المحفوظ المستور، فاعبدني في الأيام والليالي والشهور.

وقال الجوهري: والزبور: كتاب داود عليه السلام[١].

واختلفوا في فصل الخطاب الذي أوتيه على قولين:

أحدهما: أنه «أما بعد» وهو أول من قالها في قول ابن عباس.

والثاني: أنه البيِّنة على المدعي واليمين على من أنكر، قاله الضحاك.

ذكر عبادته وصيامه وورعه وقيامه

قال وهب: وكان داود كثير التلاوة والعبادة، غزير الدمعة، يصوم يوماً ويفطر يوماً.

قال أحمد بإسناده عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: «يا عبدَ اللهِ، صُم يَوماً وأفطِر يَوماً فهو أعدَلُ الصِّيامِ، وهو صومُ أخِي داود» قَالَ: قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، فإني أطيقُ أكثرَ من ذلك أو أفضلَ، فقال: «لا أفضلَ من ذَلِكَ»، انفرد بإخراجه البخاري[٢].

وقال البخاري بإسناده عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «أحبُّ الصِّيامِ إلى اللهِ صومُ داودَ، وكَانَ يَصوُمُ يَومَاً ويُفطِرُ يَومَاً، وأحبُّ صَلاةٍ إلى اللهِ صلاةُ داودَ، كانَ ينامُ نِصفَ الليلِ ويَقومُ ثُلثَهُ ويَنامُ سُدُسَهُ»[٣].

---

(١) «الصحاح»: (زبر).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦٩١٤)، والبخاري (١٩٧٦)، ومسلم (١١٥٩)، وانظر «الجمع بين الصحيحين» (٢٩٢٨).

(٣) أخرجه البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩).

وفي أفراد البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «خَفَّفَ اللهُ على دَاودَ القُرآنَ، فَكَانَ يَأمُرُ بِإسرَاجِ دَوابِّه فتُسرَج فيقرأه قبل أن تُسرَجَ، ولا يأكلُ إلا مِن عَملِ يَدِهِ»[1]. والمراد بالقرآن: الزبور، لأنه مجموع.

وللبخاري أيضاً عن المقدام بن مَعْدِي كَرِب عن رسول الله ﷺ قال: «ما أصلح[2] أحد طعاماً قط خيراً له من أن يأكل من عمل يده، وإنَّ نبيَّ الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده».

وقال وهب: لما استُخلِفَ داود على بني إسرائيل عبدَ الله عبادة لم يعبدها عابدٌ، وتلا الزبور بصوتٍ لم يُعْطَهُ أحدٌ قبله، فقال إبليس لعفاريته: نفِّروا الناس عن داود، فنفَّروهم فلم يقدروا على شيء، فلم يمض ساعةٌ من ليل أو نهار إلا وفيها صائم أو قائم من آل داود، فذلك قوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾[سبأ: ١٣]. قال وهب: كان يقرأ الزبور ويبكي، وبيده قفة خوص يسفُّها ويبيعها ويتقوَّت منها.

وقال مجاهد: قام ليلةً لم ينم إلى الصباح فأعجبته نفسه، فنادته ضفدع من الماء: يا داود، أعجبتك نفسك الليلة؟ وعزَّة ربي إن لي ثلاث ليال ما أطبقت فمي من التسبيح لله تعالى.

وقال مقاتل: سَبَّح ليلةً فأجابته الجبال، فلما كان في جوف الليل دخلته وحشةٌ، فأوحى الله إلى الجبال أن آنسيه، فاصطكت بالتسبيح والتقديس والتهليل، فقال داود: إلهي، كيف تسمع صوتي مع هذه الأصوات؟ فأرسل الله إليه ملكاً، فأخذ بيده ففرج له البحر، وانتهى به إلى قراره، ثم ضرب بيده قرار البحر المظلم المحيط، فانفجرت له الأرض حتى ظهر له الحوت، فتنحَّى له الحوت عن الصخرة التي هو عليها فضربها بيده، فانشقَّت فخرجت منها دودة تسبِّح، فأوحى الله إلى داود: إني أسمعُ تسبيحَ هذه الدودة في هذا المكان.

وقال في قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾[سبأ: ١٠] أي: سبّحي إذا سبَّح، ورجّعي إذا رجَّع. قال ابن عباس: فصدى الجبال اليوم من ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤١٧).

(٢) في «صحيح البخاري» (٢٠٧٢): ما أكل.

وقال مجاهد: بنى داود بيتاً للعبادة بأُورِي شَلِم، وهو موضع محراب داود بالبيت المقدَّس.

وذكر أبو نعيم الحافظ بإسناده عن وهب بن منبِّه قال: أوحى الله إلى داود: هل تدري من الذي أغفر له ذنوبه من عبادي؟ قال: مَن هو يا ربِّ؟ قال: الذي إذا ذكر ذنوبه ارتعدت فرائصه، فذلك الذي آمر ملائكتي أن تصلي عليه[١]. فقال داود: يا ربِّ أين أجدك؟ قال: عند المنكسرة قلوبهم من أجلي أو مخافتي[٢].

وقال السُّدي وحكاه الثعلبي عن ابن عباس، قال: كان السبب في عِظَمِ داود في أعين بني إسرائيل أن رجلاً استعدى على عظيم من عظمائهم إلى داود وقال: هذا غصبني بقرتي، فسأله داود فأنكر، وسأل الآخر البيِّنة فلم تكن لديه بيِّنة، فأوحى الله إليه أن اقتل المنكر، وكان ذلك في المنام، فقال: هذا منام ولست أعجل، فأري في منامه ذلك ثانياً وثالثاً: اقتله وإلا نزلت العقوبة، فأحضر داود الرجل وقال له: إنَّ الله أمرني بقتلك، فقال: كيف، بمنام؟ قال: لا بل بوحي صادق، فقال: لا تفعل، فقال: والله لأُنفِذَنَّ أَمرَ الله فيك، فلما تيقَّن أنه قاتله قال: لا تعجل حتى أخبرك، والله ما اغتصبت له بقرةً ولكنني اغتلتُ أباه فقتلته، فقتله داود، فازدادت هيبته في عيون بني إسرائيل[٣].

وقال ابن عباس: ما كنتُ أعلمُ ما الإشراق في قصة داود إلا من أم هانىء فإنها قالت: هي صلاة الضحى. وكان ابن عباس يصلي الضحى[٤].

واختلفوا في فصل الخطاب على أقوال؛ قد ذكرنا قولين، قال ابن عباس: هو تبيان الكلام. وقال ابن مسعود: هو علم الحكم بالقضاء. وقال كعب: الشهود والأيمان[٥].

---

(١) «الحلية» ٤/ ٣٢. وانظر «صفة الصفوة» ٢/ ٢٩٣.

(٢) «الحلية» ٤/ ٤١. وانظر «صفة الصفوة» ٢/ ٢٩١.

(٣) في (ط): فقال كيف قال بمنام، والمثبت من (ب)، وانظر عَرائس المجالس ٢٨٠-٢٨١، وتفسير الثعلبي ٥/ ٢٥٣.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٠/ ٤٤، والحاكم ٤/ ٥٣، والثعلبي في تفسيره ٨/ ١٨٣، وهذا السياق في المطبوع والمخطوط مضطرب.

(٥) ورد هذان القولان في «ب» قبل ذكر عبادته وصيامه، وانظر «عرائس المجالس» ص ٢٧٩.

فصل في محنة داود عليه السلام

واختلفوا في سبب امتحان الله داود على أقوال:

أحدها: أنه جلس يوماً يقرأ في الكتب، فوجد فيها مآثر آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فتمنى منازلهم وقال: يا رب، ذهب آبائي بكل خير، وإني أسمع الناس يقولون: إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فاجعلني رابعاً، فقال: لستَ هناك، إنهم صبروا على بلائي ورضوا بقضائي، فإنَّ إبراهيم ابتلي بنمرود، وبالنار وغيرها فصبر، وإن إسحاق ويعقوب جادا لي بنفسيهما، وإن يعقوب ابتلي بفراق محبوبه وأعزِّ الخلق عليه فقام ثمانين سنة ولم ييأس من رَوْحي طرفة عين، فقال: يا رب، فأعطني الذي أعطيتهم وابتلني[1] بما شئت، فأوحى الله إليه: إني مبتليك في وقتِ كذا فاحترس. وكان يحرس محرابه ثلاثة وثلاثون ألفاً من أولاد الأنبياء. فذلك قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾[ص: ٢٠]، وهذا قول الحسن والضحاك والسُّدي وغيرهم[2].

والثاني: أنه حدَّث نفسه أنه يقطع يوماً بغير مقارفة ذنب.

قرأت على شيخنا الموفق المقدسي رحمه الله قال: حدثنا أحمد بن المبارك بإسناده عن يحيى بن كثير عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كان داودُ قد قَسَم الدَّهرَ أربعةَ أقسامٍ، يوم لبني إسرائيلَ يُدارِسُهم العلمَ ويُدارِسونه، ويوم للنساءِ، ويوم للمحرابِ ويوم للقضاءِ، فبينما هو معَ بني إسرائيل يُدارِسهم العلمَ قال بعضهم: لا يأتي على ابن آدم يومٌ لا يصيبُ فيه ذنباً، فقال داود في نفسه: اليوم الذي أخلو فيه للمحراب تتنحَّى عني الخطيئةُ، فأوحى الله إليه: يا داودُ، خذ حِذرَك حتى ترى بلاءَكَ»[3].

والثالث: لأنه قال يوماً لبني إسرائيل: والله لأعدلنَّ فيكم، ولم يستثن، قاله مقاتل.

والرابع: أنه كان كثير العبادة، فأعجبته نفسه، فجاء جبريل فقال: يا داود، أما علمتَ بأن العُجْبَ يأكلُ العمل كما تأكل النار الحطب، فإن عجبت ثانياً وكلتك إلى

---

(١) من هنا يبدأ خرم في «ب» إلى ذكر توبته.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨١ـ٢٨٢.

(٣) «التوابين» (١٠).

نفسك، فقال: يا رب، أخطأت، ما أعود، قاله أبو بكر الوراق[١].

والخامس: أنه كان يدعو على العصاة ويقول: لا تغفر خطأ الخاطئين. فابتلاه، فلما وقع في الذنب أوحى الله إليه أتحب أن أغفر لك؟ قاله مقاتل بن حيان. وكان يقول بعدُ: إلهي، ارحم العُصَاةَ وارحم داود معهم.

والسادس: كان إذا دخل المحراب لبس أفخر الثياب وتزيَّن بأحسن الزينة فلما ابتلاه الله صار يلبس خَلَق الثياب ويدخل منكسراً، فأوحى الله إلى داود: يا داود، هكذا فكن، كنت تدخل عليَّ دخول الملوك على عبيدهم، والآن تدخل عليَّ دخول العبيد على ملوكهم، أما علمتَ أن خزائني مملوءة من العبادات، فعليك بالذل والانكسار، قاله سهل بن عبد الله التُّستَري.

قال الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١] قال علماء السير: فلما كان اليوم الذي وعده الله أن يبتليَه فيه دخل محرابه وأغلق أبوابه وأقام الحرس الذي ذكرناهم يحرسونه فأحدقوا بالمحراب، وقال: لا يدخلنَّ عليَّ أحد، وشرع في قراءة الزبور والصلاة، وكان في محرابه كوَّة، فرفع رأسه من سجوده وإذا في الكوَّة حمامة من ذهب فيها من كل لون حسن، فدخلت من الكوة ووقعت بين يديه، فمدَّ إليها يده فطارت من الكوَّة، فاطلع ينظر أين وقعت وإذا بامرأة تغتسل في بستان إلى جانب بركة، فحار في حسنها، وقال الكلبي: إنما تمثل له الشيطان في تلك الحمامة، وقال مقاتل: حانت منها التفاتة فرأت داود فتجلَّلت بشعرها فغطَّت به بدنها فازداد بها إعجاباً[٢].

وذكر الشيخ الموفَّق رحمه الله في «التوابين» عن قتادة عن الحسن: أنه وقع بين يديه طائر جسده من ذهب وجناحاه من ديباج مكلَّل بالدُّرِّ ومنقاره من زبرجد وقوائمه من

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨٣.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨٢، قال ابن كثير في البداية والنهاية ٢/ ٣٠٩ (هجر)، وفي تفسيره: وقد ذكر كثير من المفسرين من السلف والخلف ههنا قصصاً وأخباراً أكثرها إسرائيليات، منها ما هو مكذوب لامحالة، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه.

فيروزج وكان له ابن صغير فقال: والله لو اتخذتُ هذا لابني، وذكر بمعناه[١].

واختلفوا في اسمها:

فقال الضحاك: تشايع بنت حنانا[٢]. وقال السُّدي: شايع بنت شآيع.

فأرسل داود إلى منزلها فسأل عنها، فقيل: هي زوجة أُوريا فقال: وأين زوجها؟ قيل: في الغزاة مع أيوب بن صوريا ابن أخت داود، وكان قد بعثه غازياً إلى البلقاء. فيزعمون أن داود كتب إليه قدِّمْ أُوريا بالتابوت ومن تقدَّم به لا يحلُّ له أن يرجع حتى يفتح الله على يديه أو يستشهد، فبعث به ففتح له، فكتب أيوب إلى داود يعرفه، فكتب إليه: قدِّمه ثانياً وثالثاً، فقدَّمه فقتل. فلما انقضت عدَّتها تزوجها داود. وقال ابن الكلبي: فهي أم ابنه سليمان عليه السلام[٣].

ذكر دخول الملكين عليه

قال وهب: فلما دخل بها لم يلبث أن دخل عليه الملكان في يوم عبادته فجاءةً، فمنعهما الحرس فتسورا عليه المحراب، فما شعر بهما إلا وهما جالسان بين يديه. قال مقاتل: فذلك قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ [ص: ٢٢] لأنهما هجما عليه في محرابه بغير إذنه، وأقام الحرس ولم يكن يومَ الحكومة ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ﴾ وفي معناه قولان:

أحدهما: نحن خصمان.

والثاني: كخصمين أو مثل خصمين، فسقطت الكاف ومثل، وقام الخصمان مقامهما ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعدل ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي: لا تَجُر ولا تخف ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ أي: وسط الطريق، ثم بيَّنا له المراد فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [ص: ٢٣] وقيل: إن داود قال لهما تكلَّما.

فإن قيل: فكيف أوجب الأخوَّة بين الملائكة ولا مناسبة بينهم لأنهم لا ينسلون؟

---

(١) «التوابين»: (١١).

(٢) في تفسير الثعلبي ٨/ ١٨٦، وعرائس المجالس ٢٨٢: تشايع بنت شايع امرأة أوريا بن حنان.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨٢. و«التوابين» ص ٤٣.

فالجواب: إنه على وجه التمثيل لا على وجه التحقيق، لكونهما على طريقة واحدة وجنس واحد، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات: ١٠] وقد كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يقول لجبريل: «يا أخي» فيخاطبه بالأخوَّة.

وقد روي عن الحسن البصري أنه قال: لم يكونا ملكين وإنما كانا أخوين من بني إسرائيل تسوَّرا المحراب. وليس هذا القول بشيء، لأنه كان يحرس محرابه ثلاثة وثلاثون ألفاً، فكيف يتسوَّر عليه رجلان من بني آدم ولا يُعْلَمُون؟ ولأن عامة العلماء على أنهما كانا ملكين.

وقد ذكر أبو حنيفة النُّوبي زيادة على ما ذكر الحسن فقال: اختصما إلى داود فحكم بينهما، وانتبه داود على زلَّته ولم يشعر بذنبه، وهذا حسن.

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ واختلفوا في معنى النعاج:

فعامَّة العلماء على أنه كنَّى بالنعاج عن النساء، والعرب تفعل ذلك كثيراً، تورِّي عن النساء بالظباء والبقر والنعاج.

وقال الحسين بن الفضل: لم يكن هناك نعاج ولا بغي، وإنما هذا تعريض للتنبيه والتفهيم لداود. والأول أصحُّ، لأنه من المعاريض.

وقال مجاهد: إنما ذكر هذا العدد لأنه عدد نساء داود. فقال داود: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾[ص: ٢٤].

فإن قيل: كيف جاز لداود أن يحكم ولم يسمع كلام الخصم الآخر؟ فالجواب: أن أحدهما لما ادَّعى على الآخر اعترف له صاحبه، فعند اعترافه قضى عليه، فحذف الاعتراف اكتفاء بفهم السامع ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ﴾ أي: أيقن وعلم ﴿أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ أي: ابتليناه.

وفي سبب تغيُّره ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الملكين أفصحا له بذلك، قاله السدي.

والثاني: أنهما عرجا وهما يقولان: قضى الرجل على نفسه، فعلم أنهما عَنَياه بذلك، قاله وهب.

والثالث: أنهما نظرا إليه وضحكا أو نظر أحدهما إلى الآخر وضحك ثم عرجا،

فعلم أنَّ الله ابتلاه بذلك، قاله مقاتل[١]. والوجه الأول أظهر، قاله السُّدي.

قال داود للخصم الآخر: ما تقول أنت؟ قال: نعم أريد أن آخذها منه فأُكمِلَ بها نعاجي، قال: وهو كاره؟ قال: نعم، قال: إذن لا ندعك، وإن رُمتَ هذا ضربنا منك هذا وهذه، وأشار إلى أنفه وجبهته. فقال: أنت يا داود أحقُّ أن يُضربَ منك هذا وهذه، حيث لك تسع وتسعون امرأة وليس لأوريا إلا واحدة، فلم تزل تُعَرِّضُهُ للقتل حتى قُتل، فتزوجتَ امرأته. وعرجا فنظر داود فلم ير أحداً فعرف ما وقع فيه[٢].

ذكر ما جرى بعد صعود الملكين

قال ابن عباس في قوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ أي: ابتليناه بما جرى في حق المرأة ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾. قال مقاتل: أي ساجداً، عبَّر بالركوع عن السجود لأنهما بمعنى الانحناء. وقال وهب: غشي عليه فأقام ثلاثاً في غشيته ثم أفاق.

وذكر جدي رحمه الله في «التبصرة» أنه بقي في سجوده أربعين ليلة لا يرفع رأسه إلا في وقت صلاة مكتوبة أو حاجة لابدَّ منها، ولا يأكل ولا يشرب، فأكلت الأرض من جبهته، ونبت العشب من دموعه، وهو يقول في سجوده: ربِّ زلَّ داود زلةً أبعد مما بين المشرق والمغرب[٣].

وقال وهب: اتخذ سبع حشايا من شعر وحشاهن رماداً، ثم بكى حتى بلَّها من دموعه، ولم يشرب شراباً إلا ممزوجاً بدموع عينيه، وما رفع رأسه إلى السماء بعد الخطيئة ثلاثين سنة إلى أن مات حياءً من ربه.

ذكر الشيخ الموفق رحمه الله في «التوابين» عن قتادة عن الحسن القصة، قال فيها: إنه لما ضحك الملكُ قال له داود: تظلم وتضحك؟ ما أحوجك إلى قَدُوم يرضُّ منك هذه وهذا ـ يعني جبهته وفاه ـ فقال الملك: أنت أحوج إلى ذلك، وتحوَّلا في صورتهما وعرجا وهما يقولان: قضى الرجل على نفسه. وعلم داود فسجد أربعين

(١) انظر «التبصرة» ١/ ٢٧٧.

(٢) انظر «التبصرة» ١/ ٢٧٧.

(٣) «التبصرة» ١/ ٢٧٧.

يوماً[١]. وذكر بمعنى ما ذكرنا.

قال: وكان يقول في سجوده:

سبحان خالق النور الحائل بين القلوب.

إلهي، خلَّيتَ بيني وبين عدوِّي إبليس فلم أقم لفتنته إذ نزلت بي.

سبحان خالق النور الحائل بين القلوب.

إلهي، لم أتعظ بما وَعظتُ به غيري. إلهي، أمرتني أن أكون لليتيم كالأب الرحيم وللأرملة كالزوج الرحيم فنسيت عهدك.

سبحان خالق النور.

بأيِّ عين أنظر إليك يوم القيامة وإنما ينظر الظالمون من طرفٍ خفيٍّ.

سبحان خالق النور.

إلهي، الويل لداود من الذنب العظيم الذي أصابه.

سبحان خالق النور.

إلهي، الويل لداود إذا كُشفَ عنه الغطاء فيقال: هذا داود الخاطىء.

سبحان خالق النور.

إلهي، أنت المغيث وأنا المستغيث، فمن يدعو المستغيثُ إلا المغيثَ.

سبحان خالق النور.

إلهي، فررت بذنوبي واعترفت بخطيئتي فلا تجعلني من القانطين ولا تُخزِني يوم الدين[٢].

وفي غير رواية الشيخ الموفق عن وهب: إلهي، فررتُ بذنوبي واعترفتُ بخطيئتي، وزلَّ داود زلة أبعد مما بين المشرق والمغرب، فإن لم تغفر له صار حديثاً بين الخلق.

سبحان خالق النور.

---

(١) «التوابين» (١٢).

(٢) انظر «التوابين» (١٢).

إلهي، تبكي الثكلى على ولدها إذا فقدته، وأنا أبكي على خطيئتي.

سبحان خالق النور.

إلهي، الويل لداود مما جنى إذا كُشفَ عنه الغطاء.

سبحان خالق النور.

الويل لداود إذا نُصبت الموازين واقتصَّ للمظلومين من الظالمين. الويل له إذا سحب على وجهه مع الخاطئين. إلهي، يُغسلُ الثوب فيذهب درنه والخطيئة لازمة لداود.

سبحان خالق النور... في مناجاة كثيرة.

فإن قيل: فلم خصَّ النور بالذكر دون غيره؟ فالجواب: لأنه لما وقع في ظلمة الذنب وعدم نور الهداية توسَّلَ بالنور إلى النور يستضيء به في ظلمات ذنبه.

ولما علم نبينا ﷺ أن فقدان نور الطاعة كان سبباً لوقوع داود في الزلة كان يكثر من ذكر النور فيقول: «اللهمَّ اجعَل في قَلبي نُوراً، وفي سَمعي نُوراً، وفي بَصَري نُوراً»[١] الحديث.

وكذا لما دخل عليه وفد عبد القيس، وفيهم غلام أمرد، قال له رسول الله ﷺ: «قم واقعد خلفي» فقيل له في ذلك، فقال: «وهل كانت فتنة داود إلا من النظر»[٢]؟. هذا وقد كان ﷺ ينظر من ورائه كما ينظر من بين يديه[٣]، لكن هذا قدر ما أوجبه الاحتياط عليه، والسعيد من وُعِظ بغيره.

فإن قيل: فإذا كان نبينا ﷺ ينظر من خلفه كما ينظر من بين يديه فأي فائدة في قوله: «كن خلفي»؟ قلنا: نظره من بين يديه نظر طبع، وهو مشوب بما يشتهي الإنسان ويريده، ونظره من خلفه نظر معجز، وهو مقرون بالتأييد.

قلت: وهذا الذي ذكرناه في أقاويل السلف في سبب امتحان الله داود. وقد أنكر من يقول بتنزيه الأنبياء هذا واحتجوا بما روى الحارث الأعور عن عليٍّ عليه السلام أنه قال: من حدَّث بحديث داود معتقداً صحَّته، جلدته حَدَّين لعظم ما ارتكب، وجليل ما

(١) أخرجه البخاري (٦٣١٦) ومسلم (٧٦٣) من حديث ابن عباس.

(٢) حديث موضوع، انظر الكلام عليه في سلسلة الأحاديث الضعيفة ١/ ٤٨٣.

(٣) انظر «البخاري» (٤١٩)، و«مسلم» (٩٨٥).

احتقب من الإثم، وَرَمْي من قد رفع الله محلَّه وجعله رحمة للعالمين وحجة للمهتدين[١].

قالوا: وإنما كان ذنب داود أنه تمنى أن تكون له امرأة أوريا حلالاً، وحدَّث نفسه بذلك، واتفق أنه غزا أوريا من غير قصد داود، فلما بلغه قتله لم يجزع عليه كما جزع على غيره من جنده إذ هلك، ثم تزوَّج امرأته، فعاتبه الله على ذلك لأن ذنوب الأنبياء وإن صغرت فهي عظيمة عند الله[٢].

وقال بعضهم: كان ذنب داود أنَّ أوريا كان خطب تلك المرأة ووطن نفسه عليها، فلما غاب في غزاته خطبها داود فتزوجته، فاغتمَّ أوريا غمّاً شديداً، فعاتبه الله على ذلك، حيث لم يترك هذه الواحدة لخاطبها الأول وعنده تسع[٣] وتسعون امرأة[٤].

وقد أشار جدي رحمه الله في «تفسيره» وفي «المنتظم» إلى هذا وقال: ومثل هذا لا يجوز على الأنبياء[٥]. وأقرب ما في القصة أن أوريا خطب تلك المرأة ثم خطبها داود فتزوجها فعتب الله عليه حيث لم يدعها لخاطبها.

قلت[٦]: وفصل الخطاب في هذا الباب أن الذي فعله داود عليه السلام لم يكن كبيرةً يعاقب عليها بل صغيرة. غاية ما في الباب أنه نظر إلى المرأة غير متعمد، وكذا أمره لأوريا بالقتال، والأنبياء غير معصومين من الصغائر، وإنما ذنوبهم وإن صغرت فهي عظيمة عند الله، ألا ترى أن آدم لم يسامح في لقمة حتى نوديَ إلى يوم القيامة ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾. وأما رواية الحارث الأعور عن عليٍّ عليه السلام فالحارث كذَّاب باتفاق المحدثين، ولو ثبت كان معناه أنه ارتكب كبيرة.

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨٤.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨٤.

(٣) هنا ينتهي الخرم في (ب) المشار إليه في محنة داود.

(٤) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨٤.

(٥) «زاد المسير» ٧/ ١١٦ـ١١٧، والتبصرة ١/ ٢٧٥، ولم نقف عليه في «المنتظم».

(٦) في (ب): قال المصنف رحمه الله.

ذكر توبته عليه السلام

قال علماء السير: ولما أقام على تلك الحالة أربعين يوماً جاءه النداء: يا داود، أجائع فتُطعَم، أو عطشان فتُسقَى، أو مظلوم فتُنصَر، ولم يجبه في خطيئته بشيء، فصاح صيحةً هاج ما حوله ثم قال: يا رب، الذنب الذي أصبتُه. فنودي ارفع رأسك فقد غُفِرَ لك، فلم يرفعه حياء حتى جاء جبريل فرفعه[١].

وروى قتادة عن الحسن والثعلبي عن كعب الأحبار ووهب بن منبه قالوا: لما قال الله تعالى لداود: ارفع رأسك فقد غفرت لك قال: يا رب، وكيف وأنت لا تظلم أحداً؟ قال: اذهب إلى قبر أوريا فنادِهِ وأنا أُسْمِعُهُ نداءك فتحلَّلْ منه، فانطلق داود حتى أتى قبره وقد لبس المسوحَ فناداه يا أوريا، فقال: لبيك من هذا الذي قطع عليَّ لذتي وأيقظني من رقدتي؟ قال: أنا داود، قال: نبيُّ الله؟ قال: نعم. قال: وما الذي جاء بك؟ قال: أسألك أن تجعلني في حِلٍّ مما كان مني إليك، قال: ما هو؟ قال: عرَّضتك للقتل؟ قال: عرَّضتني للخير، أنت في حلٍّ من دمي. فأوحى الله إليه: يا داود، ألم تعلم أني حَكَمٌ عدل لا أقضي بالتغرير، هلا أخبرته بأنك تزوجت بزوجته؟ فرجع فناداه فقال: من أنت؟ فقال: داود، قال: أوليس قد جعلتك في حل من دمي؟ قال: بلى ولكن إنما بعثتك للغزاة لمكان امرأتك مني وإني قد تزوجتها، فسكت ولم يجبه، فناداه مراراً ولم يجبه، فقام داود وحثا التراب على رأسه، ونادى بالويل والثبور، ثم بكى بكاء شديداً، فناداه منادٍ من السماء: يا داود، قد رحمنا بكاءَك وتضرعك وقد غفرنا لك ذنبك. فقال: يا رب، وكيف لي بأوريا؟ فقال الله تعالى: أعطيه يوم القيامة ما لم تر عيناه ولم تسمع أذناه، فيقول: يا ربِّ، من أين لي هذا ولم يبلغه عملي؟ فأقول: هذا عوضٌ من أجل عبدي داود وأستوهبك منه فيهبك لي. فقال: يا رب الآن علمتُ أنك قد غفرت لي[٢]. قال الحسن فذلك معنى قوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ﴾[ص: ٢٥] يعني الذنب ﴿وَإِنَّ لَهُ﴾ بعد المغفرة ﴿عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ أي قربة ومنزلة ﴿وحسن مآب﴾[ص: ٢٥]

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٤٨٣. و«عرائس المجالس» ص ٢٨٦.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨٦ـ٢٨٧. و«التوابين» ص ٤٦.

أي: مرجع.

وقال الثعلبي بإسناده عن وهب بن منبه قال: إن داود لما تاب الله عليه بكى على خطيئته ثلاثين سنة لا ترقأ له دمعة ليلاً ولا نهاراً، وكان أصاب الخطيئة وهو ابن سبعين سنة، قسم الدهر أربعة أقسام ـ أو أربعة أيام ـ فيوم للقضاء بين بني إسرائيل، ويوم لنسائه، ويوم يَسِيحُ في الفيافي والجبال والسواحل، ويوم يخلو في دار له فيها أربعة آلاف محراب فيجتمع إليه الرهبان فينوح معهم على نفسه ويساعدونه على ذلك.

فإذا كان يوم سياحته يخرج إلى الفيافي فيرفع صوته بالمزامير ويبكي فتبكي معه الجبال والحجارة والشجر والرمال والطير والوحش حتى تسيل من دموعهم الأنهار، ثم يجيء إلى الجبال فيرفع صوته بالمزامير فيبكي وتبكي معه الجبال والحجارة والدواب والسباع وحيتان البحر وطيور السماء، فإذا أمسى رجع.

فإذا كان يوم نَوْحه على نفسه نادى مناديه: إن اليوم يوم نَوْح داود على نفسه، فليحضر من يساعده. قال: ويدخل الدار التي فيها المحاريب فتبسط له ثلاث فرش من حصير مسوح حشوها ليف، فيجلس عليها، ويجيء الرهبان أربعة آلاف راهب عليهم البرانس وبأيديهم العصي فيجلسون في تلك المحاريب، ثم يرفع داود صوته بالبكاء والنوح على نفسه، ويرفع الرهبان أصواتهم فلايزال يبكي حتى تغرق الفرش من دموعه ويقع داود مثل الفرخ يضطرب، فيجيء ابنه سليمان فيحمله، فيأخذ داود بيده أو بكفيه من دموعه فيمسح بها وجهه ويقول: يا رب، اغفر لي ما ترى، فلو عدل بكاء داود ببكاء أهل الدنيا لعدله[1].

وفي رواية الوالبي عن ابن عباس قال: كان داود إذا جلس للنياحة على نفسه ينوح فتموت طائفة من الرهبان، ثم ينوح فتموت طائفة من الوحوش، ثم ينوح فتموت طائفة من الطيور والدواب، ثم ينوح فتموت طائفة من الناس، فيقول له ابنه سليمان: يا أبت، قتلت الخلائقَ، فيقع مغشياً عليه وينادي مناديه: ألا مَنْ كان له مع داود أخ أو قريب أو ولد فليأتِ بنعش يحمله عليه، فتأتي الناس بالنعوش، تأتي المرأة فتحمل

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨٧ـ٢٨٨.

ولدها، والأخ فيحمل أخاه، ثم يُحمَلُ داود فيلقى في بيت مظلم على الرماد، فإذا غربت الشمس جاءَ سليمان فيقول: يا أبت، أفطر الصائمون أما آن لك أن تفطر؟ فيؤتى بقرص من شعير وقدح من ماء فلا يشربه حتى يُفيضَه من دموعِهِ.

وقد ذكر جدي رحمه الله في «التبصرة» بمعناه وأسنده عن يحيى بن أبي كثير قال: بلغنا أنه إذا كان يوم نَوْح داود، مكث قبل ذلك سبعاً لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب، فإذا كان قبل ذلك بيوم أُخرِجَ له منبرٌ إلى البرية، ونادى في الجبال والغياض والصوامع ونحوها فتأتي الهوام والوحوش والرهبان والعذارى، فيصعد المنبر ويقف سليمان على رأسه، ويأخذ في الثناء على ربه فتموت طائفة من الناس، ثم يأخذ في ذكر الموت فتموت طائفة، ثم يأخذ في ذكر الجنة والنار فتموت طائفة من الناس، ثم يحمل على سريره إلى بيت عبادته ويقول: أين فلان وأين فلان؟ فيقول سليمان: ماتوا، فينادي: أغضبان أنت على داود إله داود؟ أم كيف قصرت به أن يموت خوفاً منك[1].

وروى الثعلبي عن جعفر بن محمد قال: سمعت ثابتاً يقول: ما شرب داود شراباً بعد المغفرة إلا ونصفه ممزوج بدمع عينيه.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل بإسناده عن عثمان بن أبي العاتكة قال: كان من دعاء داود: إلهي، إذا ذكرتُ خطيئتي ضاقت عليَّ الأرض برحبها، وإذا ذكرت رحمتك عادت إليَّ روحي. إلهي، أتيتُ أطباء عبادك ليداووا لي خطيئتي فكلهم دلُّوني عليك[2].

وروى الثعلبي أيضاً عن الأوزاعي قال: بلغنا عن النبي ﷺ أنه قال: «خَدَّ الدَّمعُ في وَجهِ داودَ خديدَ الماءِ في الأرض».

وروى الثعلبي أيضاً عن الحسن بن عبد الله القرشي قال: لما أصاب داود الخطيئةَ فرغ إلى العبادة، فأتى راهباً في قُلَّةِ جبل، فناداه بصوت عال فلم يجبه، فلما أكثر عليه قال الراهب: من الذي يناديني؟ قال: أنا داود نبيُّ الله، قال: صاحب القصور الحصينة والخيل المسوَّمة والنساء والشهوات؟ لئن نلت الجنة بهذا لأنت أنت. قال داود: فمن

(١) «التبصرة» ١/٢٧٨.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨٨.

أنت؟ قال: راهب راغب مترقب، قال: فمن أنيسك ومن جليسك؟ قال: اصعد تره. قال: فصعد الجبل حتى صار في قلته، وإذا بميت مسجَّىً بين يدي الراهب، فقال: من هذا؟ فقال: هذا ملك قصَّته مكتوبةٌ في لوح من نحاس عند رأسه، قال: فقرأ داود عليه السلام الكتاب فإذا فيه: أنا فلان بن فلان ملك الأملاك عشت ألف عام، وبنيتُ ألف مدينة، وهزمت ألف جيش، وأحصنت ألف امرأة، وافتضضت ألف عذراء، فبينما أنا في ملكي أتاني ملك الموت فأخرجني مما أنا فيه، فالتراب فراشي، والديدان جيراني، فخرَّ داود مغشيّاً عليه.

وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كَانَ النَّاسُ يعُودُون داودَ ويظنُّونَ أنَّه مريضٌ، وما به مَرضٌ إلا الحَياءُ والخَوفُ مِنَ اللهِ».

قال: وقال وهب: لما تاب الله على داود كان يبدأ إذا دعا للخاطئين ويستغفر لهم قبل نفسه.

وقال الثعلبي بإسناده عن قتادة عن الحسن قال: كان داود عليه السلام بعد الخطيئة لا يجالس إلا الخاطئين ويقول: تعالوا إلى داود الخاطىء، ولا يشرب شراباً إلا مزجه بدموع عينيه. وكان يجعل خبز الشعير اليابس في قصعته ولا يزال يبكي عليه حتى يبتلَّ بدموعه ويذرُّ عليه الملح والرماد ويقول: هذا طعام المذنبين الخاطئين، ثم يأكل[١].

قال الحسن: وكان داود قبل الخطيئة يصوم يوماً ويفطر يوماً ويقوم نصف الليل فلما كان من خطيئته ما كان، صام الدهر كله وقام الليل كله[٢].

قال إسحاق بن بشر بإسناده عن وهب بن منبه: إن داود لما تاب الله عليه قال: يا رب، غفرت لي؟ قال: نعم، قال: فكيف لي أن لا أنسى خطيئتي فأستغفر منها لي وللخاطئين؟ قال: فوسم الله خطيئته في كفه اليمنى، فما رفع بها طعاماً ولا شراباً إلا بكى إذا رآها، وما قام خطيباً في الناس إلا بسط راحته فاستقبل بها الناس ليروا خطيئته[٣].

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨٨.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨٨.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨٨ـ٢٨٩.

وروى الثعلبي أيضاً عن عبد الرحمن الهذلي قال: ما رفع رأسه إلى السماء بعد خطيئته حتى مات.

وقال الثعلبي: كان إذا قرأ الزبور بعد الخطيئة لا يقف له الماء ولا تصغي إليه البهائم والوحش والطير كما كانت قبلها، ونقصت نغمته فكان يقول: بحَّ صوتي. فقال: يا إلهي، ما هذا؟ فأوحى الله إليه يا داود، خطيئتك هي التي غيَّرت صوتك وحالك، قال: يا رب، أليس قد غفرتَها لي؟ قال: بلى، ولكن ارتفعت الحالة التي كانت بيني وبينك من الودِّ والقربة فلا تدركها أبداً[1]. وفي رواية: أما الذنب فقد غفرته، وأما الودُّ فلا يعود.

وحدثنا جدي رحمه الله بإسناده عن مجاهد قال: كانت خطيئته في كفِّه مكتوبة، فسجد حتى نبت من البقل ما وارى أذنيه أو رأسه، ثم نادى: يا ربِّ، قرح الجبين وجمدت العين وداود لم يرجع إليه في ذنبه شيء، فنودي: أجائع فتطعم، أم عار فتكسى، أم مظلوم فَيُنْتَصَرُ لك؟ فلما رأى أنه لم يرجع إليه في ذنبه شيء نحب نحبة فهاج ما ثَمَّ[2]. وفي رواية: فأحرق ما حوله بنفسه.

وقال أهل السير: كان له جاريتان قد أعدهما، فكان إذا جاءه الخوف سقط واضطرب، فقعدتا على صدره ورجليه مخافة أن تتفرَّق أعضاؤه.

فإن قيل: فما فائدة التوبة مع هذا البكاء والقلق والخوف، والتوبة تَجُبُّ ما قبلها؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أن فائدتها غفران الذنب ومسامحة أوريا وتهذيب داود.

والثاني: أن الندم توبة لهذه الأمَّة خصَّها الله به، ولهذا إن الذين عبدوا العجل ندموا فلم ينفعهم الندم حتى أمرهم الله بأن يقتل بعضهم بعضاً.

والثالث: أن بكاءَه وتناجيه المرَّ وقلقه بعد التوبة إنما كان أسفاً على ما فاته من المودة والمواد الإلهية، ألا ترى أن خطيئته أَثَّرَتْ في صوته وفي كون الماء لم يقف عند

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٧٨.

(٢) أخرجه ابن الجوزي في «التبصرة» ١/ ٢٧٧ـ٢٧٨.

قراءته الزبور، ولأن الوحش لم تعد تصغي إليه كما كانت، ولما شكا إلى الله أوحى إليه: خطيئتك أسقطت منزلتك عندنا وعند الخلق، ورفعت الحالة التي كانت بيننا، فكان بكاؤه على تلك الحالة.

فإن قيل: فلم أخَّرَ توبته ثلاثين سنة أو أربعين على ما قيل؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه أراد تعظيم الذنب في عينه وأعين الناس بإغلاق باب التوبة أربعين سنة.

والثاني: أنه كان يحب أن يسمع أنينه وبكاءَه، وفي بعض الكتب: أنين المذنبين أحبُّ إلينا من صياح الصديقين أو وَجَلِ المسبحين.

والثالث: خصمه كان ميِّتاً فعظَّم الذنبَ ليزجر العباد عن أذى الخصوم.

وقال مقاتل: نظر يوماً إلى حمامة تغرِّد على غصن فبكى، قال: يا حمامة، قدكنتُ قبل الخطيئة أفهم ما تقولين أما اليوم فلا، فما زالت الحمامة تضرب بجناحيها ومنقارها الأرض حتى خرج الدمُ من حلقها وماتت.

وقال مقاتل: كان داود يستغفر للخاطئين، فقال الله تعالى: بالأمس تقول: لا أستغفر لهم، قال: يا ربِّ، فبأي الأدعية أتقرب إليك؟ فقال: ادعني بياحبيبَ البكائين.

وقال أبو سليمان الداراني: ما عمل داود عليه السلام عملاً كان أنفعَ له من خطيئته، مازال منها خائفاً هارباً حتى لحق بربه. قالوا: وهذا معنى قولهم: «رُبَّ ذنبٍ أدخلَ صاحبه الجنة».

وذكر مقاتل بن سليمان في «المبتدأ» له عن وهب بن منبه أنه قال: إذا دخل الجنةَ أهلُها وُضِعَ لداود منبرٌ في النور من نور، في أعلى درجة في الجنة، ويقول الله: يا داود، قم احمدني في الجنة بصوتك الرخيم كما كنت تفعل في دار الدنيا، فيقوم فيحمد الله تعالى بمحامد يقول: الحمد لله الذي لا يقدر قدرَهُ المتفكرون، والحمد لله الذي لا يُحصي نِعمَه العادُّون، والحمد لله الذي لا يبلُغ مدحَه المادحون، والحمد لله الذي لا يؤدِّي حقَّه المجتهدون. فإذا رفع داود صوته استفرغ نعيم أهل الجنة، قال: وعن يمين المنبر قباب من اللؤلؤ، فيقول داود: يا ربِّ، من يسكنُ هذه القباب؟ فيقول الله تعالى: من يتواضع لعظمتي، ويقضي زمانه بذكري، ويكف نفسه عن الشهوات لأجلي، يطعم

الجائع، ويكسو العاري، ويؤوي الغريب، ويجبر المكسور، ويرحم المصاب، فذلك الذي يضيء نوره في الناس كالشمس، إن دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته، أكلؤه بقوَّتي وأحفظه بمنتي[١]، وأوكل به ملائكتي.

فصل في السجدة

وسجدة «صٓ» سجدةُ تلاوةٍ، وبه قال الحسن والثوري ومالك وأبو حنيفة.

وقال الشافعي: هي سجدة شكر. وعن أحمد كالمذهبين.

وثمرة الخلاف: لو تلاها في الصلاة وغيرها سجدها عندنا، وعندهم لا يسجد، واحتجوا بما روى النسائي عن ابن عباس أن النبي ﷺ سجد في«صٓ» وقال: «سَجَدَها دَاودُ توبةً ونَسجُدُها شُكراً»[٢].

وروى أبو داود عن أبي سعيد الخدري قال: قرأ رسول الله ﷺ يوم الجمعة على المنبر سورة «صٓ» فنزل وسجد، فسجد الناس معه، فلما كان في الجمعة الثانية قرأها فتشزَّن الناس للسجود، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّما هِيَ تَوبةُ نَبيٍّ ولَكن رأيتكم تشزَّنتم للسجود فسجدت»[٣]. ومعنى تشزَّن أي: تهيَّأ وانتصب.

وأما قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا﴾[ص: ٢٤] أي: ساجداً.

وأما سجود النبي ﷺ فحجة لنا، وقوله: «ونحن نسجدها شكراً» لا يدلُّ على أنها لا تجب، لأنها سبب وجوب الإنعام على داود ولنا به أسوة. وقوله ﷺ: «رأيتكم تشزنتم فسجدت» يدل على الوجوب إذ لو لم تكن واجبةً لما سجد.

فصل في طاعون وقع في زمان داود

قرأت على شيخنا الموفق المقدسي رحمه الله قال: حدثنا أحمد بن المبارك بإسناده

---

(١) في «ب»: بمشيئتي.

(٢) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (١٠٢٩).

(٣) أبو داود (١٤١٠).

عن وهب بن منبه قال: لما تاب الله على داود، حَسُنَ حالُ بني إسرائيل، وفشت فيهم العافية، وكثروا حتى ملؤوا الشام، وضاقت بهم فلسطين وما حولها، فعجب داود من كثرتهم، وأمر بعدِّهم فلم يقدروا على ذلك، فأوحى الله إليه: ألم تعلم أني وعدتُ أباكَ إبراهيم يوم أمرته بذبح ولده إسحاق فأطاعني أن أنمي ذريته حتى يكونوا عددَ نجوم السماء وأكثر، ولا يحصيهم العدد، فلما علمتَ أني منجزٌ له ما وعدته ذهبتَ تختبرني، أو ظننت أني مخلف وعدي؟ وإني أقسمت بعزتي لأبتلينهم بثلاثة تُقِلُّ عددهم، فخيِّرهُمْ بين أن أبتليهم بالقحط ثلاث سنين، وبين أن أسلِّط عليهم العدوَّ شهرين، وبين أن أسلط عليهم الطاعون ثلاثة أيام، فجمعهم داود وخيَّرهم فقالوا: أنت نبيُّنا فاختر لنا، فقال: أما الجوعُ فبلاءٌ فاضح ولا صبر لأحدٍ عليه، وأما العدوُّ فإن اخترتموه فلا بقيَّة لكم، والموت أعز، فخرج بنو إسرائيل إلى موضع البيت المقدَّس يسألون الله كَشْفَ الطاعون عنهم، فاتخذ داود ذلك الموضع مسجداً[1].

وقال ابن الكلبي: كان ذلك لإحدى عشرة سنة مضت من ملكه، وتوفي قبل أن يتم بناؤه، فأوصى بذلك إلى سليمان، لما نذكر.

وفي رواية عن وهب: فأمرهم أن يتجهَّزوا، فاغتسلوا وتحنَّطوا ولبسوا الأكفان، وبرزوا إلى موضع بيت المقدس بالذراري والأهلين، وضجُّوا إلى الله تعالى ضجَّةً واحدة، وارتفع داود على صخرة بيت المقدس، ولم يكن هناك مسجد، يدعو ويتضرَّع، فأرسل الله عليهم الطاعون يوماً وليلة تَحِلَّة القسم، فمات منهم خلق كثير، ثم كشفه الله عنهم، فقال لهم داود: هذا صعيد مبارك ابنوا فيه مسجداً لله تعالى، فبنوا لما نذكر.

وقد أخرج أحمد في «المسند» بمعناه فقال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي بإسناده عن صهيب قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى همس شيئاً لا أفهمه ولا يخبرنا به ثم قال: «أوَظننتم بي»؟ قلنا: أجل، فقال: «إني ذكرتُ نبياً من الأنبياء أُعطِيَ جُنُوداً من قَومِهِ فقالَ: من يكافىءُ هؤلاء، أو من يقوم لهؤلاء، أو غَيرَها من الكلام، فأوحى اللهُ إليه اختَر لِقومِكَ إحدى ثلاث: إمَّا الجوعُ، وإما العدوُّ وإما الموتُ، فاستشار قومه في ذلك، فقالوا: أنتَ نبِيُّ اللهِ فاختَر لنا فالكلُّ إليك، فَقامَ إلى صَلاتِهِ وقال: إلهي، أمَّا عَدوٌّ من غَيرِهم فلا، وأمَّا

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٤٨٤ـ٤٨٥، وعرائس المجالس ٣٠٩.

الجوعُ فلا، ، ولكِن الموت، فماتَ منهم سبعُونَ ألفاً، فهَمسِي الذي ترون أني أقول: اللهمَّ بِكَ أُقاتِلُ، وبِكَ أُصَاوِلُ، ولا حَولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ»[١].

فصل في حوادث قضى بها داود فاستدرك عليه سليمان

منها قصة الزرع والغنم

حدثنا أبو عبد الله محمد بن البناء الصوفي البغدادي بإسناده إلى أبي الفضل ابن خيرون وأبي طاهر الباقلاوي قالا بإسنادهما عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾[الأنبياء: ٧٨] أي: رعت ليلاً بغير راع، قال: تقدَّم رجلان إلى داود أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم، فقال صاحب الحرث: إن هذا سلط غنمه على حرثي فلم تُبْقِ منه شيئاً، فقال داود: اذهب فلك رقابُ الغنم، فقضى داود بذلك، فمرَّ صاحب الغنم على سليمان وهو صغيرٌ ابن إحدى عشرة سنة فقصَّ عليه القصة، فدخل عليه وقال: يا أبت، إنَّ القضاء غير ما قضيت به، قال: وكيف؟ قال: أن تدفع الغنم إلى صاحب الحرث ينتفع بها طول العام فيأخذ أولادها وأصوافها وألبانها، وتدفع الأرض إلى صاحب الغنم فينتفع بها طول العام، فإذا انقضى الحول دفعت ـ أو رددت ـ إلى هذا غنمه وإلى هذا أرضه، فقال داود: أصبتَ الحكم والقضاءَ. قال ابن عباس: فذلك قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾[٢].

وقال قتادة: لم يكن بين ثمن الحرث وثمن الغنم تفاوت فلهذا قضى به داود.

وقال ابن مسعود وشريح: إنه كان كرماً قد نبتت عناقيده[٣].

وقال الفراء: النَّفْشُ أن ترعى الغنم ليلاً والحمل نهاراً والكل بغير راع.

﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾[الأنبياء: ٧٨] أي: لا يخفى علينا من أمرهم.

فإن قيل: فهما اثنان، فلم جمع بقوله: «لحكمهم»؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: ما ذكرنا أن الاثنين جمع، وبه قال أبو يوسف.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٨٩٣٧)، وجاء بعدها في (ب): فصل في وفاة داود عليه السلام.

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ٤٨٦ ـ ٤٨٧. وانظر «عرائس المجالس» ص ٢٩١.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٩١.

والثاني: أن الإشارة إلى داود وسليمان والخصوم. والأول أصحُّ، لأن الخصوم لا حكم لهم ولا قضاء. ودلَّت الآية على أن كل مجتهد مصيب، والحق عند الله واحد، وفيه خلاف عند المعتزلة.

وقد اختلف الفقهاء في هذه المسألة: فعند أبي حنيفة لا ضمانَ على صاحب الغنم سواء كان ليلاً أو نهاراً إذا لم يرسلها، لأنه لا يوجد منه سبب الضمان.

وقال الشافعي وأحمد: يجب الضمان على صاحبها. واحتجَّا بما روى الزهري قال: دخلت ناقة للبراء بن عازب حائطاً لبعض الأنصار فأفسدته، فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقضى على البراء بما أفسدته الناقة وتلا هذه الآية، وقال: «وعلى أصحَابِ الماشِيَةِ حِفظُ ماشِيتِهم بالليل، وعلى أصحابِ الحَوائِطِ حِفظُ حوائِطِهم بالنَّهارِ وحِفظُ زَرعِهِم»[١]. والجواب من وجوه:

أحدها: أنه أرسلها ويجب الضمان بالاتفاق.

والثاني: أنه منقطع لأن الزهري لم يلق البراءَ بن عازب.

والثالث: لأنه يخالف الأصول، أو يُحمل [على] أنه خاص في هذه الواقعة.

ومنها قصة الصبي

وقال أحمد: حدَّثنا يونس بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خَرجت امرأتَان ومعهُما صبيَّان، فَعَدا الذِّئبُ على أحدِهما، فأخَذَتا تَختصِمَان في الباقي فاحتَكمَتا إلى دَاودَ، فَقضى به للكُبرَى، فمرتا على سُلَيمانَ فقالَ: كيفَ أمرُكُمَا؟ فَقصَّتا عليه القِصَّةَ فقالَ: الحكمُ غَيرُ هذا، ايتُوني بِسكينٍ أشقُّهُ بينهُمَا، فَقالت الصُّغرى: أتشقهُ؟ قال: نعم، قَالت: لا تفعَل، قد وهبتُ حَظِّي مِنهُ لها». وفي رواية: إنَّ داود حكم بأن يبقى الولد عند كل واحدة سنة. وفي رواية: أنه هو ابنها فقال لها: هو ابنك، فقضى به للصغرى. متَّفق عليه. قال أبو هريرة: والله إنْ سمعتُ السكين إلا يومئذٍ، ما كنا نقول إلا المدية[٢].

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٣٦٩١).

(٢) أخرجه أحمد (٨٢٨٠)، والبخاري (٣٤٢٧)، ومسلم (١٧٢٠).

وقال الزهري: كلاهما حكم بالاجتهاد وإنما لسليمان فطنة.

وقال ابن سيرين: كان قضاؤهما بطريق الاجتهاد، ولم يكن نصّاً، لأنه لو كان نصّاً لم يختلفا فيه.

وقال الحسن البصري: لولا هذه الآية لرأيت القضاة قد هلكوا، ولكن الله أثنى على سليمان لصوابه وعلى داود لاجتهاده[١].

ومنها: ما رواه مجاهد قال: شهد أربعة على امرأة بالزنى فرجمها داود، وبلغ سليمان، وكان ابن سبع سنين، فقال: عليَّ بالشهود، فجيء بهم فسألهم سليمان متفرقين فاختلفت أقوالهم، وبلغ داود فأمر بقتلهم.

فصل في وفاة داود عليه السلام

قال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كَانَ في داودَ غيرةٌ شدِيدَةٌ، وكَانَ إذا خَرَجَ مِن دَارِه أَغلَقَ الأبوابَ، فلم يدخُل على أهلِهِ أَحدٌ حتى يَرجِعَ، فَخَرجَ ذاتَ يَوم وقد أَغلَقَ الأبوابَ، فأقبَلت امرأتُه تَطَّلعُ في الدَّارِ، فإذا رجلٌ قائم وسَطَ الدَّارِ، فقالت لمن معها في الدَّارِ: من أين دَخلَ هذا الرجلُ والأبوابُ مُغلقةٌ؟ واللهِ لَنُفتَضَحَنَّ مع دَاودَ. وجاء دَاودُ فوجَدَ الرَّجلَ قائماً فقالَ: من أنت؟ قال: من لا يَهابُ الملوكَ ولا يمتنِعُ منه الحُجَّابُ، قال: فأنتَ إذن مَلَكُ الموتِ، قال: نعم، قال: مرحَباً بأمرِ اللهِ، فزمَّلَ مكانَهُ حتى قبضَهُ، فقال سُليمانُ للطَّيرِ: أظلِّي على دَاودَ، فأظلَّتْ عليه حتى أظلمَت الدُّنيا، فقال لها سليمان: اقبِضِي جَناحَاً جَناحَاً» ـ قال أبو هريرة: يُرينا رسول الله ﷺ كيف فعلت الطير، وقبضَ رسولُ اللهِ ﷺ يده ـ وغَلَبتْ عليه يومئذ المَضْرَحِيَّة[٢].

فقال الفراء: هي النسور الحمر.

وقال الجوهري: المَضْرَحيُّ، بالضاد المعجمة والحاء المهملة، الصقر الطويل الجناح[٣].

---

(١) انظر «زاد المسير» ٥/ ٣٧٢. والآية المقصودة: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩]

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٩٤٣٢). وفيه المصرحية بالصاد المهملة، وشرح عليه السندي فقال: اسم فاعل من التصريح غلبت عليه صفة التصريح والإيضاح في البيان حتى يوضح المرام بالكلام ويستعين عليه بالإشارة باليد. اهـ. والله أعلم.

(٣) «الصحاح»: (ضرح).

وقال ابن المسيب: توفي داود عليه السلام يوم السبت فعكفت عليه الطيور تظلّله، وكان داود يُسْبِت.

وقال مجاهد: مات يوم الأربعاء، والأول أشهر.

وقال أبو السكن الهجري: وقيل: مات إبراهيم الخليل وداود عليهما السلام فجأة، وكذا الصالحون، وهو تخفيف على المؤمن وتشديد على الكافر.

وقال وهب: دفن بالكنيسة المعروفة بالجسمانية شرقي بيت المقدس في الوادي.

وقال ابن عباس: شيَّع جنازته أربعون ألف راهب.

وفي «التوراة»: كان ملكه على فلسطين والأردن ونواحيها، وكان في عسكره ستون ألف مقاتل.

واختلفوا في سنِّه على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه عاش سبعاً وسبعين سنة، ملك منها أربعين سنة، وكذا هو في «التوراة».

والثاني: مئة وأربعين سنة، حكاه أبو إسحاق الثعلبي[١].

والثالث: مئة سنة، وهو الأصح على ما نطق به الحديث الذي ذكرناه في وفاة آدم، وأنه وهب لداود أربعين سنة، وأنه رجع فيها، فأتمَّ الله لداود المئة[٢]. وكذا قال جدي في «أعمار الأعيان»: إنه عاش مئة سنة. قال: وكذا عبد المنعم بن إدريس وسُويد بن سعيد وأحمد بن جعفر بن حمدان القطيعي[٣].

(١) في «عرائس المجالس» ص ٢٩٤: مئة سنة.

(٢) انظر توبة آدم.

(٣) «أعمار الأعيان» ص ٩١.